شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

٦٧

أولويات العلم

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

أولويات العلم [١] ١

- مفهوم العلم وأولوياته ٢
- أنواع العلوم ٣
- مصطلح العلم في الكتاب والسنة ٤
- مراتب العلم الشرعي ٦
- أخذ العلم المفضول وترك الفاضل ٨
- التدرج في العلم ١٠
- تنوع الخطاب في العلم ١٣
- تعلم علوم الشر ١٥

١) رابط الحلقة
https://www.youtube.com/watch?v=t78iKew5i6o

مفهوم العلم وأولوياته

العلم له معنىٰ والأولويات لها معنىٰ وأن أضيف للعلم أولوياته فله معنىٰ وإن أضيف في غيره كذلك فلكل شيء أولويات ولكل شيء علم فثمة علم مادي وثمة علم غيبي وثمة علم محسوس وثمة علم معنوي وثمة علم ديني وأخر شرعي فالعلوم تتنوع ولكل علم أولويات وكذلك فإن الأولويات تختلف بحسب الجهات ، فربما تقع علىٰ علم وربما تقع علىٰ غيره فثمة أولويات في العلم وثمة أولويات في الجهل فالجهل مراتب ودركات ، فثمة جهالات في الدين وثمة جهالات في الدنيا، كذلك في أبواب العلم فالعلم له أولويات وهو علىٰ مراتب في ذاته وبالنسبة للمتلقين وأحوال متعددة فثمة علم يجب علىٰ الجميع أن يتعلمه لأفضليته وعلوه ، وثمة علم يختلف فيه الأشخاص بحسب أعمالهم وبلدانهم وما وصلوا إليه من سابق علم فيتنوع الخطاب ولا يتوجه لأحد .

لهذا تنظيم تلقي العلم من الأمور المهمة فيجب علىٰ الإنسان أن يعرف العلم في ذاته من جهة مراتبه وعلىٰ سبيل الاستقلال من جهة أهميته وكذلك يعرف موضعه من العلم هل هو في أول الطريق أم في وسطه أم في أخره فلو جهل مدىٰ بلوغه الطريق ربما ظن بلوغه الغاية وهو لم يبلغ البداية ، ولهذا نجد كثير من المتعلمين يأخذ العلم ويقع في خطأ وذلك أنه يبدأ به خاطئ فيجهل موضعه من جهة العلم. وهذه الاشياء تختلف من جهة الناس وأحوالهم فثمة أشياء تجب علىٰ كل أحد مثل علم العقائد فهو العلم الواجب في كل حين كحال الماء لحياة الإنسان ; ولهذا الماء عنصر لحياة الإنسان وبقائه سواء كان شرقيًا أم غربيًا كبيرًا أو صغيرًا كافرًا أو غير كافر فالماء أمر أساسي .

لهذا تختلف الأولويات وتتباين بحال الإنسان وموضع العلم في ذاته فمن بلغ وسط العلم وجب عليه أن يتعلم نوع معين وعلم الرجال يختلف عن علم المرأة والعلم الذي يجب علىٰ الحاكم يختلف

عن العلم الواجب على المحكوم والتاجر يختلف عن من ليس بتاجر والمجاهد يجب عليه أن يتعلم علم الجهاد بخلاف غيره وهكذا .

ولهذا فإن معرفة أولويات العلم أمر مطلوب وكذلك بالنسبة لمراتب الناس والمخاطبين فيها لهذا يجب على الإنسان التفقه في أولويات العلم حتى يأخذ علمًا يجني ثمرته في عاجل أمره وآجله .

أنواع العلوم

ثمة علم شرعي وثمة علم دنيوي ومن العلوم منها ما يتشاطر بين الدنيوي والشرعي وكذلك العلوم تُقسم باعتبارات أخرى فثمة علوم دينية وثمة علوم دنيوية وأما من جهة الفرض واللزوم فثمة علوم عين وثمة عيون كفائية وثمة علوم مستحبة باعتبار التكليف فهي على مراتب ثلاثة ، وكذلك يُقسم العلم باعتبار حال المخاطب وله اعتبارات .

فأنواع العلوم متعددة ولكن نجد العلوم بجميع أنواعها بها ثمة علم هو العلم الأول بكل حال أيا كانت حاله يتعلمه الإنسان ويعمل به وهذا يشير لتقسيم أخر من تقسيم العلوم وهو : علم من العلوم يعمل به الإنسان وعلم لا يعمل به الإنسان فلا يخاطب به فيجب على الإنسان أن يتعلم العلم الذي يستطيع أن يقرن معه عمل كحال المقعد أو القاعد الذي لا يستطيع أن يجاهد أو المحكوم الذي لا يستطيع تولي ولاية فيجب عليه أن يتعلم العلم الذي يقوم به في ذاته وأما علم الولاية والجهاد لا يتعلمه لقيام العذر فيه ، فالعلم الذي يعمل به الإنسان أولى من العلم الذي لا يعمل به والناس يتباينون كذلك من جهة الوجوب فثمة علم عيني وعلم كفائي وعلم مستحب وهذا من الأمور المهمة ليعرف منزلته من جهة أولويات العلم وما يجب عليه تجاهه .

مصطلح العلم في الكتاب والسنة

العلم إذا أطلق في كلام الله عز وجل وفي كلام رسوله ﷺ يكون على النوع الأول وهو العلم الشرعي أو النوع الثاني الدنيوي الممتزج بالعلم الشرعي وأما العلم الدنيوي المحض الذي لا أثر له على دين الإنسان فلا يدرجه الاصطلاح ولا كذلك في كلام العلماء وإخراجه من سياقات الشريعة لا يعني من ذلك أنه لا يسمى علما .

فمثلًا الدعاء حينما يأتي في كلام الله وكلام رسوله يكون على العبادة وأما فلان يدعو فلان لوليمة فله معنى لغوي أخر ، فاصطلاح الشريعة لا يخرجه من المعنى اللغوي ، فمصطلح العلم يطلق على العلم الشرعي أو ما اقترن بشيء من الدنيا مثل علم الأرواح والأنفس فسماها علمًا لاقترانها بالأمور الغيبية ووجوب الإيمان كما في قول الله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾(الإسراء : ٨٥) مع أن علم الأرواح لا يتعلق بعمل يباشره الإنسان فهو توجه لشيء يعرف به الإنسان عظمة الله من جهة خلقه وإحكامه .

ومنه كذلك علم الأرض وعلم الأفلاك وعلم التربة فهذه العلوم التي أرشد الله إليها وحث إليها لأنها توصل لمعرفته سبحانه فأمر فيها بالتفكر والنظر وهو مما يؤدي لتحصيل العلم وكذلك أمر بالسير في الأرض فكل هذه العلوم أرشد الله إليها لأنها تؤدي إلى زيادة إيمان الإنسان ويقينه .

وأما العلوم الدنيوية المحضة التي لا علاقة لها بدين الإنسان فهي داخلة في المعنى اللغوي لكن في الاصطلاح لا تدخل .

ولذلك اصطلاح العلم ينصرف إلى العلم الذي جاء به الأنبياء ولهذا قال رسول الله ﷺ (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)[٢] وهو العلم الذي أرشد الله تعالى إليه ومنه ما جاء في الحديث (إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ)[٣] والمقصود به هو العلم الشرعي والأنبياء جاءوا بالعلم الذي يرشد لله وفيه قوام دنياهم فهو أول ما يخاطب به الناس من جهة وجوب التعلم .

والمرتبة الثالثة في العلم هو بحسب الكفاية وما تقوم به الدنيا وهو العلم الدنيوي المحض الذي لا أثر للتعبد فيه فهذا يخاطب به العبد بحسب الحاجة إليه فما قامت به دنيا الناس أرشدت الشريعة لتعلمه وأكدته وربما أوجبته على الأعيان.

وثمة علم لا يقوم الدين إلا به وذلك أن الله أمر بالصلاة وتشييد البناء والمساجد وإقامتها فنعلم من هذا أن علم العمارة لا تتم الصلاة إلا به من صلاة الفرائض فلابد لها من مساجد وبناء فوجب علينا تعلم علم العمارة ، وكذلك صنعة اللبوس فقد أمر الله بأخذ الزينة من اللباس عند كل مسجد كما في قول الله تعالى ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ (الأعراف :٣١)فأخذ الزينة مما حث الله عليه فمرتبته تنزل عن مرتبة الاستحباب والتأكيد وهكذا تتمازج العلوم وهكذا في كل علم اتصل بالعلم الشرعي .

فكل علم اتصل بالعلم الشرعي بحسب مرتبة العلم الشرعي يكون الحث عليه فما يتصل بالتوحيد وما لا يقوم الدين إلا به يأخذ الوجوب ودخوله في دائرة التأكيد ومنه ما لا تتم الصلاة إلا به فيجب على الإنسان أن يتعلمه كستر العورات على سبيل الدوام في كل الصلوات وأما المساجد واجبة في الفرائض فيكون علم معرفة اللبس لستر العورة أولى من معرفة البناء وهكذا تختلف تراتيب العلوم كلما كان العلم آكد وأوجب ولا يقوم الدين إلا به كان تعلمه أوجب .

---

٢) رواه مسلم : الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٩٩) ، والترمذي : العلم (٢٦٤٦) ، وابن ماجه : المقدمة (٢٢٥) ، وأحمد (٢٥٢/٢) ، والدارمي : المقدمة (٣٤٤).

٣) جزء من حديث مروي عن أبي الدرداء من طرق كثيرة تدور أغلبها على: عاصم بن رجاء : ومنها رواية ورواه عبد الله بن داود الخريبي عن عاصم بن رجاء عن داود بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء به ،أخرج هذه الرواية أبوداود (٣٦٤١)، وابن ماجة(٢٢٣)، والدارمي(٣٤٣)، وابن حبان(٨٨)، والبيهقي في الشعب(١٥٧١).

ففي قول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه : ١١٤) المراد به هو العلم الشرعي .

وأما ما يتعلق بالشطر الثالث من أنواع العلوم وهو العلم الدنيوي المحض الذي لا أثر له في جوانب التعبد فهذا العلم المفضول وتأكيد الشريعة عليه بحسب قوامه وأثره في الناس ومنه لو زيد فيه لوقع الإنسان في شر وفتنة.

في قوله ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه : ١١٤) المراد هو العلم الشرعي ابتداء وقد يدخل فيه العلم الدنيوي على سبيل التبعة لا على سبيل الاستقلال .

مراتب العلم الشرعي

العلم الشرعي ليس على مرتبة واحدة وإنما هو على مراتب متعددة وله اعتبارات منه ما يقوم معه عمل ومنه ما يكون بلا عمل ومنه علم بحسب اعتبار الإنسان وحاله منه ما يكون فرض عين أو فرض كفاية ومنه ما هو دون ذلك مرتبة وهكذا .

وفروض الأعيان تجب على كل أحد أن يتعلمها ويعمل بها وأول الواجبات العينية على الإنسان أن يعرف الإنسان حق الله تعالى على عباده وأعظم حق الله على عباده هو التوحيد فهو أول العلوم وأعلاها مرتبة وآكدها ولا يكون إيمان إلا بإقامة التوحيد ويجب أن يعرف نقيضه فهو أخطر معلوم فيجب على الإنسان أن يعلمه وهو الشرك وعبادة الطاغوت ليعلمه ويحذر من خطره ، والتوقي من الأمور المعلومة من جهة النظر ومن جهة الشرع .

فالله تعالى أمر نبيه ﷺ بدعوه التوحيد فكان أول العلوم ; فأول ما أمر الله به تعالى جميع الأنبياء هو توحيد الله سبحانه وتعالى ، ولهذا لما بعث النبي ﷺ معاذًا لليمن قال ((إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا أَهْلُ كِتَابٍ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ ، تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ ،

وَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ)[٤] وجاء في رواية عند البخاري قال (إلى أن يوحدوا الله) فتوحيد الله هو الشهادتين ولوازمها فالتوحيد هو أول ما يدعى إليه ، ولهذا لم يأتي أحد للنبي ﷺ يسأله عن الإسلام إلا أمره بالشهادتين ، ولهذا جاء في الصحيح قول رسول الله ﷺ (أَيْ عَمِّ قُلْ : لا إِلَهَ إِلا اللهُ ، كَلِمَةٌ أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ)[٥] فهذه أعلى الكلمات وأعلى المعاني .

فالعلم الأول هو التوحيد والعلم الثاني هو نقيضه وهو النهي عن الشرك مع الله عز وجل وهو ما أمر الله به من اجتناب الطاغوت والطاغوت هو كل ما يُعبد من دونه سبحانه .

وكذلك قد بين الله لنبيه أن دعوته تشابه سائر دعوة الأنبياء وهذا خطاب على سبيل العموم ; ولهذا جاء عن النبي ﷺ (الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)[٦] والمراد أن الدين هو الإسلام والتوحيد واحد ولكن الأقوام يغيرون ويبدلون كما قال الله تعالى﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ ﴾ (آل عمران :١٩) فهو دين الله جميعا من أدم لنبينا محمد ﷺ ويبقى لقيام الساعة فأول ما يجب على الإنسان أن يتعلمه هو علم التوحيد : وهو على أنواع توحيد ربوبية الله وتوحيد ألوهيته وعلم الأسماء والصفات وهي علوم متداخلة بعضها يلزم لبعض وذلك أن الإنسان إذا عرف أن الله هو الخالق والرازق وأن هذا توحيد الربوبية عرف أنه المستحق للعبادة وحده وأنه كذلك له أسماء وصفات فيجب عليه أن يتعلم هذه العلوم على سبيل الوجوب وهذه الأشياء بحسب منزلة الإنسان وبعده عما يدخل عليه من دواخل دينه فإذا كان لديه بدعة وثمة شركيات فبحسب بلده . فبعض البلدان يوجد فيها بعض الضلالات في الربوبية فيجب عليه تعلم علم الربوبية أو الألوهية أو الأسماء والصفات وهكذا .

ثم بعد ذلك تأتي بقية الأركان كما جاء في الحديث (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ)[٧] .

---

٤) رواه البخاري المغازي (٤٣٤٧) ، مسلم الإيمان (١٩) ، الترمذي الزكاة (٦٢٥) ، النسائي الزكاة (٢٤٣٥) ، أبو داود الزكاة (١٥٨٤) ، ابن ماجه الزكاة (١٧٨٣) ، مسند أحمد (٢٣٣/١) ، سنن الدارمي الزكاة (١٦١٤) .

٥) رواه البخاري برقم١٣٦٠ ، ٣٨٨٣ ، ٤٦٧٥ ، ٤٧٧٢ ، ٦٦٨١ ومسلم برقم٢٤.

٦) رواه البخاري (٣٤٤٢ ، ٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) (١٤٣، ١٤٤، ١٤٥).

٧) رواه البخاري - الإيمان (٨) ، ومسلم - الإيمان (١٦) ، والترمذي - الإيمان (٢٦٠٩) ، والنسائي - الإيمان وشرائعه (٥٠٠١).

فأركان الإسلام الخمسة تأتي بعد توحيد الله تعالى فتجب على الإنسان عينا ، فيتعلمها باعتبار أنها تجب على الجميع الذكر والأنثى الكبير والصغير من جهة أمر وليه عليه ، فالصلاة يخاطب بها الكبير والصغير كما جاء عن رسول الله ﷺ(مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ)[٨] فحتى الصبي لابد أن يبادر في علم الصلاة ، فعلم الصلاة يقدم على غيره .

وكذلك بالنسبة للزكاة يجب تعلمها لأنها تجب على الكبير والصغير لكن إذا كان صغير يجب على الولي أن يتفقه في أحكام الزكاة إذا كان وصي على مال وأما ذات الصبي لا يجب عليه تعلم الزكاة باعتبار أنه محجور عليه لصغره ويقوم عليه وليه فالمال ليس عنده .

أخذ العلم المفضول وترك الفاضل

يُخطئ الكثير في أخذ العلم فيأخذ المفضول ويترك الفاضل لسبب أنه ربما تكون ثمة موجة لتعليم علم معين أو إعلام ينشر علم معين فيقع الناس في تعلم مفضولات ويدعوا العلم الواجب عليهم ، أو تجد كثير من الناس يتشوف لشخص من العلماء وهذا الشخص ربما يتكلم في علوم مفضولة أو يتكلم يوم عن علم فاضل ويوم عن علم مفضول ويدع الواجب الذي أوجبه الله عليه فنقول : حبك للعالم لا يعني أن علومه تناسبك في ذاتك فربما يتكلم عن علم بالنسبة لك هو علم مفضول .

فالعلم الواجب على الحاكم يختلف عن العلم الذي يجب على المحكوم من جهة أنه لابد أن يتعلم علم الأحكام والعدل ورفع الظلم وتشريع الله فثمة مراتب للعلم وثمة مراتب للمتعلمين.

والمتعلمون على مراتب لهذا يلمس في كثير من الطلاب أنهم يأخذون مفضولات ويدعون العلم الفاضل والعلم الفاضل منه ما هو قائم في ذات الإنسان ومنه ما يكون في غيره والعلم القائم في ذات الإنسان هو العلم الذي لا يقوم دين الإنسان ولا دنياه إلا به فيجب عليه عينًا .

---

٨) رواه ابو داود (٢/ ٤٠١).

وثمة علم يتعدى لغيره مثل البدع والمحدثات والضلالات التي تكون في بلد من البلدان ونحو ذلك فيجب على الإنسان أن يسد تلك الخلة فالإسلام يشبه الحائط ولهذا جاء في حديث (بني الإسلام) يوضح أن الإسلام كحال البناء ، والبناء يتكون من لبنات ، كما قال النبي ﷺ (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ)[٩] اللبنات حال المؤمنين فإذا كان ثمة فجوة في ذلك البناء فيجب على الإنسان أن يسدها فمن يحرص على العلم المفضول ويدع الفاضل كحال الإنسان الذي يأتي لحائط فيقوم إلى الحائط ويزينه ويلونه ويدع الفجوة التي به فيأثم ، فمن ترك الفاضل للمفضول فقد ترك الفجوات في الأمة وعمد إلى الكماليات.

فالعلم لا يؤخذ بالأذواق والحس فربما يميل الإنسان لشيء من المفضولات والأمة لا تحتاجه فهذا طلب العلم بالتشهي ، لهذا نقول إن العلم لا يطلب بالتشهي وإنما يطلب بالحاجة والوجوب والوجوب إما أن تكون الحاجة قائمة في ذات الإنسان أو قائمة في غيره وهكذا بحسب الأمر المتعدي وكذلك الأمر اللازم .

فما عرف بالشرع مما أوجبه الله تعالى يجب تعلمه من علم التوحيد والحذر من النقيض وهو الشرك ، ثم جانب النظر يعرف الناس به العلوم المفضولة من كماليات الناس فإذا تركوا الحاجات لأجل الكماليات يختل نظام الدنيا كذلك في الدول إذا تركوا الضروريات وأخذوا الكماليات يقع فيهم الضلال والخلل .

لهذا تجب العلوم العينية على الإنسان ثم الكفائية ثم يتوجه الإنسان إلى ما بعدها بحسب الحاجة .

وكذلك مراتب الناس والمخاطبون فهم على مراتب رجال ونساء صغار وكبار فبعض الأقوام ليسوا مخاطبين ببعض الأركان ، وبحسب اعتبار الإنسان إذا عرف موضعه وموضع العلم به يعلم ما يجب عليه وما لا يجب عليه وبه نعلم أن الخلل في معرفة التراتيب والأولويات له أسباب متعددة منها الجهل بمراتب العلم ومنها الجهل بموضع الإنسان في ذاته ومقامه ومنها الجهل بحاجة الناس .

٩) رواه البخاري :كتاب المظالم، باب نصر المظلوم ح(٢٣١٤)، ومسلم : كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم: ح(٦٥٨٥)، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

ومن الخلل من يتعلق بحب العالم فيأخذ منه كل ما يطرح وربما تكون مباحثه من الثقافات والمفضولات فتجد كثير من طلاب العلم يتوجه للمفضولات .

وكذلك أخذ العلم بالتشهي لسؤال الناس بماذا تتمنى ؟ ماذا تحب أن تكون ؟ يقول أحب أن أكون كذا ... فيعيشه للوصول لغاية ربما لا تأتي إلا بعد عقود ، وتختلف مواضع الدنيا في عقد وعقدين فيتعلق بها فيتشهى هذا الشيء بعيدًا عن وصول الحاجة للأمة فيتوجه لعلم مفضول مثل علوم الآلة والأدب والسلوك والمخطوطات وغيرها فيغرق فيها ويوغل ، بينما تجده يترك العلوم الفاضلة والعلوم الغائية وتجد أنه من أجهل الناس بها فلا يستطيع أن يفسر القرآن برغم بلاغته ومعرفته بعلوم اللغة ولا يعرف أن يخرّج حديث برغم إتقانه علوم الحديث .

كذلك من الخلل التناوب بين الأفراد في العلوم فهذا فقه وهذا حديث وهذا لغة وهذا تفسير لأنه في الغالب لا يستطيع الفقيه أن يستنبط دون علم الآلة فهذه من الأمور المهمة أن يكون ملم بين هذه العلوم قدر وسعه وإمكانه .

ونجد أن هذه العلوم فيها ما يتوسع ولا يحتاج الإنسان إليه ولو أكثر الكلام فيه يورثه غرور لكن من جهة الحاجة لا يحتاج إليه ولهذا جاء عن علي بن أبي طالب (**العلم نقطة كبّرها الجهال**) فيصبح كنوع من تضخيم العلم الذي لا حاجة إليه مما يورث الكبر والغرور ولا نفع فيه .

التدرج في العلم

إذا أدركنا أولويات العلم في ذاته وفي موضع الإنسان من العلم وحاجة الناس إليه أدركنا التدرج في العلوم وهو من الأمور المطلوب أخذها بعين الاعتبار ، ولهذا جاء عن عمر (**لَا يَبِعْ فِي سُوقِنَا إِلَّا مَنْ قَدْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ**)[١٠] هذا بالنسبة للبائع فلم يأمر المجاهد بالفقه في البيع ولم يأمر النبي ﷺ بفقه

١٠) أخرجه الترمذي في سننه كتاب الصلاة (٤٨٧) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي ، ١/ ١٥١ .

البيع لعامة الناس ، فثمة خطاب لأهل الاسواق وثمة خطاب لأهل الجهاد فلكل فئة من الناس خطاب متباين .

فالتدرج يكون بحسب موضع الإنسان فالرجل يختلف عن المرأة ، والصغير يختلف عن الكبير ، والأولويات والتدرج بالنسبة للصغير تختلف عن غيره ، وقد تجد بعض الناس يعلم الصغير لغة أجنبية ولا يعرف اللغة العربية وهذا يورث خلل وهو عدم إدراك الأولويات فالذي لا يدرك العربية ويتقن الأعجمية لديه خلل من جهة التراتيب ، وهكذا بحسب أولويات الناس وغاياتهم ، فربما يحتاج إنسان التوسع في لغة العجم أكبر من لغة العرب إذا كان المخاطب بذلك من يخاطب العجم بالتوحيد ونبذ الشرك فيحتاج للتوسع في لغة العجم إذا كان لديه من المبادئ ما يحفظ به دينه من الكتاب والسنة .

والإشكالية في معرفة بداية التدرج من أين بدأ ؟ فإذا عرف البداية يكون التدرج ، قد يحسن الإنسان في التدرج لكن يبدأ بداية خاطئة فيهدر عمره فيما لا يفيده .

وقد قسمنا العلم على اعتبارات ثمة علم عيني وثمة علم كفائي وعلم يجب على الإنسان أن يعمل به وعلم لا يعمل به وعلم تحتاجه الأمة وعلم لا تحتاجه الأمة .

من هنا نحدد البداية بالعلم العيني والعلم الذي يعمل به والعلم الذي تحتاجه الامة ; ولهذا جاء في الأثر **(حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن أنهم كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يعلموا ما فيهن من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا العلم والعمل جميعًا)**[١١] فربط العلم بالعمل فهذا من الأولويات لأنها ترسخ المعلومة لدى الإنسان ، وانفكاك العلم عن العمل هو أمارة نفاق .

بالنسبة للتدرج إذا عرف الإنسان نقطة البداية التدرج له خطوات حتى يثبت الإنسان معه فالأول له أن يقرن العلم بالعمل ، والثاني قرن العلم بالحفظ فكل علم لا يحفظ فيه شيء فهو أقرب للنسيان ثم يتدرج في الحفظ وألا يستعجل به لأن كثرة الحفظ تورث اعتداد بالمحفوظ وهو لا يفهم فيظن أنه

١١) رواه الإمام أحمد بن حنبل ج ٥/ ص٤١٠ .

أعلم من غيره فيورث له الغرور ، فالحفظ هو قواعد العلم الذي يقوىٰ بها الإنسان لكن لا يسرع فيه لأن كثرة الحفظ تورث لديه اعتداد بما لديه وربما لا يفهمه فيظن انه أعلم ممن يفهم أكثر منه ;ولهذا روى عبدالرزاق في المصنف عن ابن عباس قال (قدم رجل من الكوفة ، وسأله عمر رضي الله عنه عن أحوال الناس فقال: يا أمير المؤمنين قرأ القرآن منهم كذا وكذا. فقال ابن عباس رضي الله عنهما: والله ما أحب أن يسارعوا هذه المسارعة في القرآن .قال فزجرني عمر فقال: مه مه ، فانطلقت إلى منزلي حزينا ، وقلت كنت بمنزلة عند عمر ولا أراني إلا سقطت منه! فاضطجعت على الفراش ، حتى ظن أهلي أني مريض ، فبينما أنا كذلك إذا بالباب يقرع ، فقالوا: أجب عمر. فخرجت فإذا عمر واقف بالباب ، ثم خلا بي فقال: يا ابن عباس ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفا ؟ فقال يا أمير المؤمنين: إن كنت اسأت فإني استغفر الله وأتوب إليه ، وأنزل حيث أحببت قال: لتخبرني. قلت: "متى ما يسارعوا هذه المسارعة يحتقوا ، وإذا احتقوا يختصموا ، وإذا اختصموا اختلفوا ، وإذا اختلفوا اقتتلوا")[١٢] وهذا هو إدعاء العلم الذي يجعل من الإنسان أجوف كالبالون المنتفخ فيورثه اعتداد فإنك تحفظ كم هائل ولكن لا تعرف مواضيعه ولا تراتيبه فلن تعرف الخطاب الذي توجهه للناس لهذا تجد أن سلف الأمة عليهم رحمة الله والمحققون خاطبوا الناس بالمحكم قبل المتشابه وعلموا الناس المحكم قبل المتشابه علىٰ سبيل التدرج .

ولهذا قد جاء (عن سعيد بن جبير قال: إن الذي تدعونه المفَصَّل هو المحكم.قال: وقال ابن عباس: توفي رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وأنا ابن عشر سنين، وقد قرأت المحكم.حدَّثَنا يعقوب بن إبراهيم، ثنا هشيم، أنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال، جمعت المحكم في عهد النبي –صلى الله عليه وسلم، فقلت له: وما المحكم؟ قال: المفصَّل)[١٣] وقد رواه البخاري .

١٢) رواه عبدالرزاق في المصنف عن ابن عباس

١٣) في "الفضائل" "٩/ ٨٣"وأخرجه أحمد "٢٢٨٣، ٢٦٠١، ٣١٢٥" من طرق عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس مثله

ومعرفة الإحكام مُقدم على معرفة المتشابهات وبهذا نعلم أن الرد على الفرق قبل معرفة المحكمات أن هذا من الخطأ وربما ينجر الإنسان لتلك الطوائف ، وهذا من أوائل التدرج في العلم الشرعي وهي الدائرة الأوسع .

والدائرة الأضيق في التدرج أن يأخذ بالمحكمات من القرآن فيعرف أدلة العقيدة والأحكام من القرآن فيقدم القرآن على السنة ثم يقرن كل دليل بالأحاديث فآيات الصلاة يقرنها بأحاديث الصلاة وأيات الجهاد يقرنها بأحاديث الجهاد وهكذا فإذا ثبت العلم ورسخ يأخذ بعد ذلك من فهم الصحابة والتابعين ومنشأ الخلاف وسببه ثم يجد طمانينة قوية لأنه جاء من أصل لشبهة لا من شبة لأصل فيكون تمسكه أقوى من غيره .

وثمة طريق عكسي أنهم يعمدون إلى المتشابهات للخوض مع الفلاسفة والرد عليهم دون أخذ المحكمات فيقع الانحراف ، فنجد البعض ممن وقعوا في الخوض والصراع مع الفلاسفة كالمدرسة القديمة كفلاسفة المتكلمين تفرغوا في زمن من الأزمنة للرد عليهم فتوسعوا في الرد على الفلاسفة وأما المحكمات أخذوها بعد ذلك فوقع لديهم شيء من المخالفة وكذلك بعض الطوائف والفرق الضالة العقائدية أو الفكرية والآداب والسلوك ونحو ذلك .

تنوع الخطاب في العلم

ثمة علوم تتعلق بالمتلقي ومنزلته هل هو رجل أم أنثى حاكم أم محكوم فالخطاب للمرأة يختلف عن خطاب الرجل ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمر الرجال بعلم يختلف عن النساء فقد جاء عنه **(تعلموا سورة براءة –أي للرجال–، وعلموا نساءكم سورة النور)**[١٤] ذلك أن سورة براءة

١٤) موقوفا على عمر بإسناد صحيح على شرط مسلم وهو ما رواه سعيد بن منصور في سننه وأبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن.

تجد فيها أحوال الأمة والفتن والنفاق مما يتشوف له الرجال ، وأما سورة النور فبها أحكام الحجاب وأمور النساء.

وكذلك الصغار يتعلمون الصلاة قبل غيرها فالناس لا تخاطب بأمر واحد وكذلك التدرج في تعلم المفصل على ما تقدم فالمحكم من القرآن يقدم على غيره حتى يكون الإنسان أرسخ وأقوى .

وهناك علم يعمل به الناس وهناك علم لا يعمل به الإنسان ، والعلم الذي يعمل به هو أوجب العلوم فلابد أن يتعلمه الإنسان وهناك من العلوم العلم الذي لا يعمل به لابد أن يرجئه حتى يستفرغ فيما يعمل به ، ولهذا جاء عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه (وَكُنْتُ أَسْأَلُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي)[١٥] أشار إلى ميزة في ذلك لماذا يسأله عن الشر ؟ مخافة أن يدركه وذلك أن حذيفة يعلم من أمور الفتن وأشراط الساعة من النبي ﷺ ما ليس لدى غيره من الصحابة فكان لديه تدرج يختلف عن غيره .

وحذيفة عليه رضوان الله أراد علمًا خشي على نفسه أن يدركه لما لديه من علم والنبي ﷺ مات قبله فيريد أن يسارع معرفة شيء لو جاءه توقاه ووقى الأمة منه ، ولهذا كان عمر بن الخطاب ينظر لحذيفة في أعماله لأنه يعلم أن لديه علم .

وأما تشوف كثير من المتعلمين لتعلم أمور الغيبيات والفتن وأشراط الساعة بغير علم العقائد والصلاة والزكاة التي تجب عليهم الآن فهذا من الخلل فيجب عليه أن يرجئه.

وكم من الناس تعلموا علوم لم يعملوا بها والخلل أنهم توسعوا في أشياء لا يلزم منها العمل فضاعت أعمارهم في ذلك .

وحذيفة رضي الله عنه انبرى لهذا العلم باعتبار أن النبي ﷺ قد مات قبله فيريد المسارعة بمعرفة شيء لو جاءه توقاه ووقى الأمة شره وكذلك هو يعرف أولويات العلم لكن لا يستطيع أن ينزل الزمان لديه علم ويعلم أنه قريب .

١٥) رواه البخاري ، كتاب الفتن، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن .

وفي هذا رسالة لطلاب العلم والعلماء ممن يعرفون الطوائف البادية ولا يعرفون الفرق الحالية وهذا قصور وخلل عظيم فيجب أن يعلم أن ثمة خلل بدراسة العلم الماضي كما ثمة خلل في دراسة علم المستقبل ؛ فمن الخلل في طلب العلم الإغراق والتوسع في معرفة الفرق الفانية دون معرفة الفرق الحالية فدراسة العلم الماضي مما لا أثر له في الوجود خلل وكذا ثمة مستقبليات قد لا يدركها المرء فيجب على طالب العلم الاهتمام بالعلم المعاصر حتى يحصن نفسه ويحصن من حوله .

تعلم علم الشر

كما أن للعلم مراتب ودرجات فإن للجهل مراتب ودركات متباينة فثمة شر عظيم وثمة شر أعظم وأعظم الشر هو الشرك لذا معرفته واجبة ثم يتدرج في معرفة الشر فمنه ما هو في الدين ومنه في الدنيا ومنه ما يمتزج بينهما وتوقي الإنسان فيه يكون بحسب موضعه إن كان عالم أو حاكم أو قاضي أو فردًا من عوام الناس فثمة أبواب بحسب قرب الشر منه ، فلكل زمان ومكان شرور تختلف فينظر إليها وينظر لموازينها في الشريعة فكأن الناس يقفون على ثغور فيحمون ثغور الأمة وثغور الإسلام.